سلسلة الرسائل (١٩)

مكة حرسها الله تعالى/١٤٤٣هـ

الاستعداد لدار المعاد

للشيخة أم عبد الله بنت الشيخ

مقبل بن هادي الوادعي

حفظها الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله ونبيه محمد الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

نحمد الله على هذا اللقاء وهذا التزاور في الله عَزَّوَجَلَّ، نسأل الله أن يكتب لنا الأجر والمثوبة، وأن يجزي الأخت التي دعتنا واستقبلتنا خيرًا.

أخواتي في الله يجب أن نتذكرَ ما نحن صائرون إليه، وإننا قادمات على أهوالٍ وشدائد، فإن الإنسان له عمر محدود، ويتقلب في هذه الدنيا في امتحانات وابتلاءات، دار الرحيل، وما هي إلا كالجسر نعبر عليه إلى دار الآخرة، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كتابه الكريم: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وما هي إلا أيام يسيرة يعيشها الإنسان، ثم يأتي الموت الذي لا بُدَّ منه ولا مفر لأحد منه، لا بُدَّ من تجرع كأس الموت ومرارته، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كتابه الكريم: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران: ١٨٥].

حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على كل نفس بالموت والفناء، والموت الناس فيه سواء، يأتي على الصغير والكبير، ويأتي على الشاب، وعلى الغني والفقير، ويأتي على الرئيس والمرؤوس، يأتي على الجميع.

هو الموت ما منه ملاذ ومهرب ... متى حُطَّ ذا عن نعشه ذاك يركب

ويقول آخر:

كل ابن أُنثى وإن طالت سلامته ... يومًا عـــلى آلة حدبـــاء محمول

ويقول آخر:

وَإِذَا المنيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا ... أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

المنيَّةُ: الموت، فإذا نزل الموت لا يستطيع أحد دفعه، لا يستطيع أن يدفعه طبيب ولا حبيب، ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ۝٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ۝٢٨ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ۝٣٠﴾ [القيامة]. فلا طبيب يداوي ولا حميم ينفع إذا نزل الموت، ثم المصير بعد الموت الحياة البرزخية إلى أن تقوم الساعة، هذا الموت-الذي يقَطِّعُ الأوصال ويفرق الأجزاء-من أعظم المصائب، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [المائدة: ١٠٦]. سمى الله الموت مصيبة؛ فلذلك إذا خرجت الروح-ولا تخرج إلا وهي كارهة-يثقل جسد الإنسان، قال الشاعر:

حَسِبْتُ التُّقَى وَالجُودَ خَيْرَ تِجَارَةٍ ... رَبَاحًا إِذَا مَا المَرْءُ أَصْبَحَ ثَاقِلا

(حَسِبْتُ) أي: أيقنت، والغالب في (حسب) أنها للرجحان. (خَيْرَ تِجَارَةٍ) أفضل تجارة تقوى الله عَزَّوَجَلَّ، أفضل الأرباح تقوى الله عَزَّوَجَلَّ. (ثَاقِلا) أي: ميتًا؛ وذلك أن الميت إذا مات يثقل جسدُه، ثم المصير إلى القبر، يُدْخَل في جوف الأرض بعد أن كان على ظهرِها، ويهال عليه التراب، ويحيط به من جميع الجوانب ومن جميع الجهات، ولا يرفع عنه التراب إلا قدر شبر، ويوضع الأحجار؛ لتثبيت القبر حتى لا يُنبش أو تدخل عليه الأمطار وتجرفه السيول، فلا حول ولا قوة إلا بالله، قال الله تَعَالَى في كتابه الكريم: ﴿ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ [طه: ٥٥]. ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ ﴾ أي: من الأرض. ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ تعودون إلى جوف الأرض بعد أن كنتم على ظهرها.

ويقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كتابه الكريم ممتنًا على عباده: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [المرسلات: ٢٥-٢٦]. أي: تضمكم في حياتكم وبعد مماتكم، فالقبر يعتبر سترًا للإنسان ورحمة من الله، ولا يصلح له إلا القبر بعد مماته، حتى أحب الناس إليه لا يقبل وجوده بعد وفاته.

فيبقى في قبره وحيدًا فريدًا، يبقى في حفرة القبر المظلمة، إنها حفرة موحشة، حفرة ضيقة، حفرة فضيعة، روى الترمذي(٢٣٠٨) عن هَانِئٍ، مَوْلَى عُثْمَانَ قَالَ: كَانَ عُثْمَانُ، إِذَا وَقَفَ عَلَى قَبْرٍ بَكَى حَتَّى يَبُلَّ لِحْيَتَهُ، فَقِيلَ لَهُ: تُذْكَرُ الجَنَّةُ وَالنَّارُ فَلاَ تَبْكِي وَتَبْكِي مِنْ هَذَا؟ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ القَبْرَ أَوَّلُ مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِلِ الآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ». قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ إِلاَّ وَالقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ»(١).

(١) الحديث في «الصحيح المسند» (٩٠٩) لوالدي رَحِمَهُ اللَّهُ.

فالقبر ليس هناك منظر أفظع منه.

ويبقى في قبره وحيدًا فريدًا ليس عنده أحد، قال الله تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: ٩٤].

﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ أي: ما أعطيناكم، تركتم الأموال، تركتم الأولاد، تركتم الأهل، تركتم الخدم، لا أحد يدخل معه في قبره إلا عمله، وما هي إلا أيام-وهو في قبره- فيُنتن وتنبعث منه رائحة كريهة، ويسيل منه القيح والصديد، ويبلى وتنهشه الدود والحشرات، بل يصير مقيلًا لها-أي: منزلًا لذلك الدود، تنهشه وتأكل جسده-، ذلك الجسد الذي كان محافظًا عليه، لا يقبل أن يلمسه التراب في حياته ولا أي أذى، قد صار في القبر بين التراب، وصار جثة نتنة يأكله الدود، ويأكله التراب، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

يقول النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الخَلْقُ يَوْمَ القِيَامَةِ» (٢). أي: يأكله التراب والدود إلا عجْب الذنب، وهو العصعص، وهو أسفل العمود الفقري.

ويبقى في قبره إما منعمًا وإما معذبًا، إن كان من أهل الصلاح والخير يكون منعمًا في قبره حتى تقوم الساعة، وإن كان من أهل الفجور ومن أهل الكفر يكون معذبًا في قبره، نعوذ بالله من فتنة القبر وعذابه.

ثم المآل متى شاء الله عَزَّوَجَلَّ بعث من في القبور، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كتابه الكريم: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ

(٢) رواه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

﴿أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾ [عبس: ١٧-٢٢]. متى شاء الله عَزَّوَجَلَّ أن يبعثنا من قبورنا بعثنا، ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ق: ٤٢-٤٤].

تتفطَّر الأرض وتنشق بكلمة واحدة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إنها عظمة الله وقوته بكلمة واحدة من دون تكرار، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]. فتنشق الأرض ويخرج الناس من قبورهم سراعًا ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المعارج: ٤٣-٤٤].

ويخرجون من قبورهم كيوم ولدتهم أمهاتهم: حفاة، عراة، غرلًا. يقول النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا» قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟ فَقَالَ: «الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكِ» (٣).

لا يلتفت أحد إلى أحد في ذلك اليوم العظيم ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٧]؛ فلهذا يقول النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكِ» فهكذا يخرجون من قبورهم «حُفَاةً» بلا نعل، «عُرَاةً» بلا كساء، «غُرْلًا» أي: غير مختونين.

ويذهبون إلى أرض المحشر والحشر، وهي أرض الشام، فهناك يجمع الله الأولين والآخرين ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: ٤٩-٥٠]. وقال تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [هود: ١٠٣].

---

(٣) رواه البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩) عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وأما الكافر فإنه يحشر على وجهه أعمى أبكم أصم؛ زيادة في عقابه، نسأل الله العافية، قال تَعَالَى: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [الإسراء: ٩٧]. وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ يُحْشَرُ الكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَالَ: «أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى الرِّجْلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ» قَالَ قَتَادَةُ: بَلَى وَعِزَّةِ رَبِّنَا». رواه البخاري (٤٧٦٠)، ومسلم (٢٨٠٦). والله على كل شيء قدير.

ذلك اليوم العظيم أمرنا ربنا سبحانه أن نتقيه وأن نحذره: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨١]. وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [البقرة: ٤٨].

ووصفه الله عَزَّوَجَلَّ بأنه يوم ثقيل، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الإنسان: ٢٧].

يوم القيامة يوم ثقيل مع أنه يوم واحد، لكنه يوم ثقيل طويل، يوم الشدة والكربة، تدنو الشمس من الخلائق-أي: تقرب منهم-فيزداد الكرب وتزداد الشدة، يقول المقداد بن الأسود: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ، حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ»-قَالَ سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ: فَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا يَعْنِي بِالْمِيلِ؟ أَمَسَافَةَ الْأَرْضِ، أَمِ الْمِيلَ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ-قَالَ: «فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى

حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا» قَالَ: وَأَشَارَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ (٤).

يعني: يصير العرق كاللجام له يغطي فاه، فيغرق الناس بالعرق حتى كأنه بحر يسبحون فيه؛ لهول المقام، قد نزل منهم العرق حتى صار كالبحر، وصاروا كأنهم يسبحون في بحر؛ لشدة الزحام، ولأنه قد جيء بجهنم؛ ليراها الناس يوم القيامة، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر].

جهنم جيء بها، فالكل يراها، وأما الكفار إذا رأوها فإنهم يسمعون لها تغيظًا وزفيرًا، ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الفرقان: ١٢].

وهذا من مشاهد يوم القيامة وأهوالها حتى إنه لشدة الأمر تشيب رؤوس الولدان، قال سبحانه: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾﴾ [المزمل: ١٧].

وكأن الناس سكارى في هيئة سكارى؛ لاضطرابهم وتحير عقولهم.

حتى إنه يبلغ بهم العناء والمشقة ما لا يتحملون ولا يطيقون، فيقول بعضهم لبعض: ألا ترون ما نحن فيه، ألا تنظرون إلى من يشفع لكم، فيفزع الناس إلى عدد من الأنبياء؛ ليدعوا ربهم لإنقاذ العباد مما هم فيه من الكربة والشدة والهم، وكل واحد منهم يقول: «إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ» (٥).

---

(٤) رواه مسلم (٢٨٦٤).

(٥) رواه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أشد يوم يغضب فيه رب العباد يوم القيامة، وكل واحد من أولئكَ الأنبياء يقول: «نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي»، وفي رواية: «وَلا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ»(٦).

فإذا أتوا إلى النّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يسألونه الشفاعة، فيدعو ربه ويلهمه ربه من محامده ويخر ساجدًا له، فيشفع للعباد، ويقول: «أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ»، وهذا يدل على شدة شفقته على أمته، هذا النّبِيّ الذي يدعونا أن نستقيم وأن نتمسك بسنته، ونحن كأننا لا يعنينا ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾[آل عمران: ٣١].

وهناك يكون الحساب يحاسب الله عباده، وكل نفس تجادل عن نفسها، قال تَعَالَى: ﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾[النحل: ١١١]. تجادل عن نفسها، ولا تجادل عن أبويها، ولا عن أولادها، لا تجادل عن قريب أو بعيد، تجادل عن نفسها، فالكل يريد نجاة نفسه قبل كل شيء، ولا ينفع ولد والده، ولا التاجر تجارته، ولا الملك ملكه، ولا الوزير وزارته، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾[الانفطار: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾[الشعراء]، ويقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾[لقمان: ٣٣].

---

(٦) رواه البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

فعلينا أن نقي أنفسنا من عذاب الله، وأن نحذر من ذلك اليوم، وأن نستعد لذلك اليوم العظيم ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر: ١٨].

وكل مؤمن يخشى ويتقي هذا اليوم، لكن علينا بأن نبذل الجهد في السعي لدار الآخرة، ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: ١٩]. فيحاسب الله الخلائق، ويسألهم عن أعمالهم، ويكلمهم «مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ» (٧).

ماذا سيكون الجواب إذا وقفنا بين يدي رب العباد؟ كيف كانت صلاتنا؟ كيف كانت أوقاتنا؟ كيف كان ذكرنا لله عَزَّوَجَلَّ؟ كيف كان خوفنا من الله سبحانه؟ كيف قضينا حياتنا؟

لا بد أن تسأل كل نفس أربعة أسئلة في ذلك الموقف العظيم، قال النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ؟» (٨).

«لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ» أي: لا تتحرك من مكانها حتى تُسأل عن هذه المسائل الأربع.

فيا من تضيع وقتها، سيسألك الله عن وقتك، فاعمريه بالخير، استعدي للقاء الله عَزَّوَجَلَّ، فالحياة قليلة، والموت قريب.

---

(٧) رواه البخاري (٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦) عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ.

(٨) رواه الطبراني (٢٠/ ٦٠) عَنْ معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ويا من تضيع شبابها، احفظي شبابك، واحرصي على استغلاله في حفظ القرآن، وتفسير القرآن، وفي طلب العلم النافع، وفي بر والديك. فمن حفظت شبابها نرجو من الله أن يحفظ لها بقية عمرها.

ويا من تعلمت العلم الشرعي، احرصي على الإخلاص والعمل بعلمك؛ ليكون علمًا نافعًا.

وهكذا يسأل الله عَزَّوَجَلَّ الإنسان عن مكسبه أمن حلال أم من حرام؟ وفيما أنفقه هل أنفقه في شيء مباح أو في شيء حرام؟ هل أنفقه في الإسراف والتبذير؟

وهناك تتطاير الصحف، صحف أعمال بني آدم، فمن آخذ كتابه بيمينه، ومِنْ آخذ كتابه بشماله، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كتابه الكريم: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحاقة]، ﴿هَآؤُمُ﴾ أي: خذوا؛ لأنه مسرور، فقد أخذ كتابه بيمينه فيكون مسرورًا، فيقول للناس: خذوا اقرءوا كتابيه، كالذي يأخذ شهادته الدراسية إذا نجح بامتياز، فيُري هذا ويري هذا ما حصل له من التفوق، وهذا في أمور لا تسمن ولا تغني من جوع، أما صحيفة الأعمال فإن من أخذها بيمينه فوراء ذلك الجنة التي لا فوز أعظم منها، نسأل الله أن يجعلنا من أهلها، ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾ بسبب أعمالكم كلوا واشربوا، أي: بما قدمتم من الأعمال الصالحة والطيبة في الأيام الماضية.

وأما الآخر الذي يأخذ كتابه بشماله يكون في حسرة، ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى

سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحاقة]. مِنْ شدَّة الحسرةِ يتمنى أنه لم يُبعث بعد الموت؛ لأن المآل إلى النار، والعياذ بالله.

ولو أنا إذا متنا تُركنا ... لكان الموت راحة كل حي

ولكنا إذا متنا بعثنا ... ونسأل بعده عن كل شيء

فلنحذر أخواتي في الله أن نخسر أنفسَنا ونعطَى كتابنا بشمالنا، أعاذنا الله من ذلك، وهذا يكون باجتناب المعاصي، باتقاء سخط الله وغضبِهِ.

وهذا الكتاب يعطَى صاحبه منشورًا مفتوحًا، مسجَّل فيه جميع أعماله التي عملها خيرها وشرها، قال الله تَعَالَى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء]. أي: شاهدًا، اقرأ بنفسك كتابك فأنت الشاهد على نفسك، فلنقدم لأنفسنا الحسنات والأعمال الصالحات؛ لتقر أعيننا في ذلك اليوم العظيم، ولننقذ أنفسنا من عذاب النار، نسأل الله العافية.

فهناك نجد ما قدَّمنا ﴿ يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٠].

تجد كل نفس ما قدمت من خير أو شر ﴿ يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ ﴾ [القيامة: ١٣]. وحينئذ يتذكر الإنسان ما سعى ﴿ يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النازعات: ٣٥].

وقد كان في الحياة الدنيا في غفلة وفي نوم عميق، ويوم القيامة يفيق ويستيقظ من غفلَتِهِ، ويندم ويتحسر يوم لا ينفع الندامة، فالبدار البدار أخواتي في الله قبل الحسرة

والندامة ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ [الطارق: ٩]. وقال تَعَالَى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠﴾ [العاديات: ١٠]. حتى الأعمال التي في صدورنا تنكشف، ويظهر ما في ضمائرنا وتتضح، ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝١٦﴾ [غافر: ١٦].

وتزداد الحسرة حينما يؤتى بالموت على صورة كبش أملح ثم يُذبحُ، كما روى البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ (٩)، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: وهَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ فَلا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلا مَوْتَ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۘ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ [مريم: ٣٩]، وَهَؤُلاءِ فِي غَفْلَةِ أَهْلُ الدُّنْيَا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٩﴾ [مريم: ٣٩]».

«فَيَشْرَئِبُّونَ» أي: يتطلعون.

فالموت يذبح يوم القيامة، وهذا من مشاهد يوم القيامة أنه يؤتى بالموت يوم القيامة فيذبح؛ ليستيقن أهل النار أنهم خالدون في النار، وأهل الجنة أنهم في الجنة خالدون.

فالجنة أخواتي في الله هي لمن أقبل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، واستعد ليوم الرحيل، فنحن في دار سفر، ودار رحيل، ومستقرنا الآخرة إما جنة وإما نار، والعياذ بالله.

---

(٩) الأَمْلَحُ: الَّذِي بياضُه أَكْثَرُ مِنْ سَوَادِهِ.

وَقِيلَ: هُوَ النَّقِيُّ البَياض.

«النهاية» (٤/ ٣٥٤).

فعلينا أن نتقي الله عَزَّوَجَلَّ، وأن نرحم أنفسنا من الخزي والفضيحة يوم القيامة، ذلك اليوم الذي يحكم الله فيه بعدله ﴿ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾[غافر: ١٧].

نسأل الله أن يجعلنا في ذلك اليوم من الآمنين، وأن يجعلنا من الفائزين.

تم نشر هذه المحاضرة، ولله الحمد والمنة.

ليلة الثلاثاء الموافق ١٥ / من شهر ذي القعدة / لعام ١٤٤٣ للهجرة النبوية

على صاحبها الصلاة والسلام.